

الحلقة الثالثة

يوسف الصديق فى بيت عزيز مصر
العزيز يوصى امرأته بيوسف
المرأة تراود يوسف عن نفسه
العزيز يتبين الحقيقة بفحص القميص

الآيات القرآنية التي صيغ منها شعر الحلقة الثالثة

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢) وَرَاوَدَتْهُ الْفَاحِشَةُ الَّتِي هِيَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لَنَصْرَفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩) ۞

أشعار الحلقة الثالثة

- ١ يا ويحَ إخوة يوسف صاروا قساةً ظالمين
- ٢ قد أجزموا في حقّه ، كانوا لسوءِ عامدين
- ٣ الحقْدُ أعماهم فضّلوا عن طريقِ الراشدين
- ٤ باعوا أخاهم بالدراهم ، وهو نسلُ الأكرمين
- ٥ قد واصلَ التجارُ رحلتهم لمصر قاصدين
- ٦ ذهبوا بيوسفَ نحو مصر لموطنِ المتحضرين
- ٧ وهناك في سوقِ الرقيقِ يُحاط بالمتعجبين
- ٨ لقد اشتراه عزيزُ مصرَ من الرجالِ الجالبين
- ٩ في بيته أوصى به زوجاً لها طبعُ مشين
- ١٠ من قوله : فلتكرمي مثواه إكرامَ البنين
- ١١ فعساه ينفعنا إذا صرنا شيوخاً طاعنين
- ١٢ فلننخذْه لنا وليداً وارثاً كالوراثين
- ١٣ بيتُ العزيزِ قد احتواه ، فعاش عيشَ المترفين
- ١٤ قد مكَّنَ المولى ليوسفَ ، صار في أمنٍ أمين
- ١٥ أعطاه ربُّ العرشِ فضلاً ، نعمَ ربِّ العالمين
- ١٦ أعطاه تأويلَ الحديثِ ، غدا به في المرسلين
- ١٧ ربُّ السماءِ أرادَ بالصديقِ خيراً ، عن يقين
- ١٨ للمجد يصعدُ بالبلاءِ ، قضاء خيرِ الخالقين
- ١٩ ما شاءه المولى يكونُ ، برغمِ كُرهِ الكارهين
- ٢٠ هو غالبٌ في ملكه والناسُ ليسوا غالبين
- ٢١ قد شبَّ يوسفُ واستوى مثلَ الشبابِ البالغين
- ٢٢ أعطاه ربُّ العرشِ حسناً صار وضاءً الجبين
- ٢٣ بل زاده فضلاً فأصبح في عدادِ المرسلين
- ٢٤ زوجُ العزيزِ تحبُّه من نوعِ حبِّ الفاسقين
- ٢٥ صارت تناجي نفسها في حبه كالحالمين
- ٢٦ الذئبُ في أعماقها يعوى عواءَ الجائعين

٢٧ من أجلِ هذا قررتُ أمراً بتدبيرٍ متين
 ٢٨ همتُ تنفذُ خطةً من وحى إبليسِ اللعين
 ٢٩ فى مخدعٍ قد هيأتهُ إلى لقاءِ العاشقين
 ٣٠ نادتُ على الصديقِ أقبلُ مسرعاً كالخادمين
 ٣١ نادتهُ والثوبُ الرقيقُ يشفُّ عن جسدِ فتين
 ٣٢ قد أغلقتُ أبوابها منعاً لكلِ القادمين
 ٣٣ كانتُ تظنُّ بأن يوسفَ كالرجالِ الفاسقين
 ٣٤ ما أن تشيرَ إليه ، يأتيها معجىءُ الراغبين
 ٣٥ لكنَّ يوسفَ كان عفاً من سلالةِ صالحين
 ٣٦ قالتُ : فإنى « هيت لك » أقبلُ وكن فى الآمنين
 ٣٧ أقبلِ فلن الشوقُ يغلبنى إليك مع الحنين
 ٣٨ فأجابها فوراً « معاذَ الله » ربِّ العالمين
 ٣٩ لا ، لستُ خَوَّاناً ، فهذا من صفاتِ الخائنين
 ٤٠ لا ، لن أخونَ لسيدى ، قد كان لى فى المكرمين
 ٤١ إن الخيانةَ دون شكٍّ من صفاتِ الظالمين
 ٤٢ والظالمون فلن يكونوا فى عدادِ المفلحين
 ٤٣ همتُ لتأخذهُ ، أبى ، فى عفةِ المتبتلين
 ٤٤ لما أبى فقدتُ صواباً ، أصبحتُ كالذاهلين
 ٤٥ جرحتُ كرامتها فصارت كالوحوشِ الكاسرين
 ٤٦ بالضربِ قد آذتهُ ، هم بمنعها كى تستكين
 ٤٧ أبتِ التراجعَ هم يضربها ، رأى النور الميين
 ٤٨ فلقد رأى البرهانَ فى أعماقه ، هذا يقين
 ٤٩ معناه ، إن تضربُ زليخا ، نالك الغمز الميين
 ٥٠ فلتصبرنَ على أذاها ، لاتكن كالجاهلين
 ٥١ هى دون شكٍّ من ذواتِ النقصِ فى عقل ودين
 ٥٢ فاصبرِ كصبرِ الأنبياءِ ، فقد غدوا فى الخالدين
 ٥٣ ولأنتِ ذو عقلٍ رجيحٍ ، فى عدادِ المرسلين
 ٥٤ ذاكم هو البرهانُ فى الأعماقِ ، رؤيا المتقين
 ٥٥ ولنصرفنِ السوءَ والفحشاءَ عنك لتستبين

٥٦ إذ أنت صفوتنا سُلالة أنبياءٍ مخلصين
 ٥٧ لما تحقّق يوسفٌ من ذلك النصيح الأمين !
 ٥٨ من ثمّ ولّى هارباً ينجو من البطشِ المهين
 ٥٩ أختُ الفجور وراءه تعدو كعدو الطالبين
 ٦٠ وقميصُه قدتهُ من دُبُرٍ ليهدى الحاكمين
 ٦١ وهناك عند البابِ أقبل سيدُ البيتِ الفطين
 ٦٢ قالت له فوراً : لتسمعني سماعِ الفاهمين
 ٦٣ هذا يريد سوءَ منى فليكن في الصاغرين
 ٦٤ فليلق في سجنٍ رهيبٍ في عدادِ المجرمين
 ٦٥ أو فليذُقْ طعمَ العذابِ لأنه في المعتدين
 ٦٦ لكنّ يوسفَ قد أجابَ ، فقال قولَ الصادقين
 ٦٧ هي روادتنى تطلبُ الفحشاءَ فعلَ الفاسقين
 ٦٨ ولقد أبيتُ فنانتي ما قد يرى للناظرين
 ٦٩ إني برىءٌ من مقالتيها براءةً طاهرين
 ٧٠ سمعَ العزيزُ مقالةَ الاثنينِ سمعَ الفاهمين
 ٧١ من ثمّ أصبحَ دونَ شكٍّ في مقامِ الحائرين
 ٧٢ لكنّ شاهدَهم يقولُ وكان ذا قولِ أمين
 ٧٣ إنّ القميصَ هو الدليلُ لتنظروه كباحثين
 ٧٤ إنّ كان قدّ من الأمامِ فإنه في الكاذبين
 ٧٥ أو قدّ من خلفِ فيوسفٍ صادقٌ هذا يقين
 ٧٦ وجدوه من خلفٍ تمزّقَ إثرَ عدوانِ مبین
 ٧٧ عرفَ العزيزُ بأن يوسفَ لم يكن في الخاطئين
 ٧٨ من ثمّ قال له : فكفّ عن الحديثِ لآخرين
 ٧٩ اكتمْ لهذا الأمرِ لا تذكره للمتسائلين
 ٨٠ وإلى زليخا قال قولاً في هدوءِ اللائمين
 ٨١ فاستغفري مما جنيتِ فذاك فعلُ الماجنين

إخوة يوسف أجزموا فى حقه

يا ويحَ إخوة يوسف صاروا قساةً ظالمين ١
قد أجزموا فى حقه ، كانوا لسوءِ عامدين ٢
الحقدُ أعماهم فضلوا عن طريقِ الراشدين ٣
باعوا أخاهم بالدرهم ، وهو نسلُ الأكرمين ٤

حينما أذكر أبناء يعقوب ، أثناء كتابتى ، لا أستطيع منع قلمى من غمزهم والنيل منهم، ومن قبل وبعد ذلك، لم يسلموا من تهكمه وسخريته بهم ، فى شعرى ونثرى .. بحيث ألهبهم بسياط التجريح والنقد القاسى ، وذلك من واقع سلوكهم الذى قصه علينا القرآن الكريم ، ولم لا .. فهم فى رأى قساة ، تجردوا من العواطف ، لا سيما عاطفة الأخوة ، ورابطة النسب والدم .. ظالمون فى حكمهم على يوسف .. ذلك الغلام البرىء ، الذى لا شأن له بتفضيل أبيه له عليهم ، ولا بما تنطوى عليه قلوبهم .. نتيجة لسلوك أبيهم الذى تصوره ظالماً ، بل ضالاً .

إن الذى لا شك فيه هو: أنهم أجزموا فى حق يوسف ، والجريمة لم تكن منهم عن جهل، وليست أيضاً عن حسن نية ، بل هى جريمة مقصودة ، خططوا لها بدقة وإتقان .

لقد انتصر الشيطان فى نفوسهم ، فاستولى على تفكيرهم ، فصاروا يفكرون به وله، وكأنى بهم من شدة حقدهم على يوسف، قد أراحوا الشيطان من الوسوسة لهم .. واستطيع أن أقول ، أيضاً : إن أبناء يعقوب ، لو قُدر لهم أن يجلسوا مع الشيطان علانية ، ثم قالوا له : أشر علينا بالرأى الصواب بشأن يوسف ! لما جرؤ أن يشير عليهم بقتله كما قرروا هم ذلك أول الأمر . ذلك لأنه يخشى أن يكون قد أشار عليهم بما لا يقبلونه ، ذلك لعلمه أن يوسف ، أولاً وآخرأ ، هو أخوهم ، ولا يمكن أن يفكر أخ يتمتع بقواه العقلية ، فى قتل أخيه .. فهل أنا مبالغ فى هذا .. ؟! لا أعتقد .

إن الذى فعله أبناء يعقوب بأخيهم يوسف ، ليس من أعمال الخير ، وباليتهم اكتفوا بهذا ، بل ختموا القصة المؤلمة ، بعمل أمرٍ وأقسى على نفس يوسف ، من إلقائه فى

البشر عرياناً ، فى غلظة وجفاء وتجرّد من العاطفة والود . . . فباعوه بثمان بخص إلى التجار ، على أنه عبد أبى .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى كتابه « القصص القرآنى » : « إن أصحاب القافلة قد ﴿ شَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ﴾ أى فيه غبن على البائعين ، حيث باعوا الجواهر بيع الحصى ، ورضوا بأن يتقاضوا فى مقابل يوسف ﴿ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾ ولو عرفوا قدر هذا الجواهر الكريم ، الذى فى أيديهم ، لفضنوا به على البيع ، حيث لا يقدر بثمان ، ولو كان القناطير المقنطرة من الذهب والفضة » .

يوسف مع التجار في مصر

قد واصلَ التجارُ رحلتَهُم لمصرَ قاصدين ٥
 ذهبوا بيوسفَ نحو مصرَ لموطنِ المتحضرين ٦
 وهناك في سوقِ الرقيقِ يُحاط بالمتعجبين ٧
 لقد اشتراه عزيزُ مصرَ من الرجالِ الجالبين ٨

بعد أن استراحت القافلة من عناء السفر ، حيث نزلوا في المكان الذي فيه الحب « جُبَّ يوسف » وأيضاً قد تمت الصفقة بينهم وبين أبناء يعقوب . . قيل : كان الطرفان زاهدين في يوسف . . إخوته يريدون بيعه ، وبأى ثمن !!! ولو سألوه بغير ثمن ، لما ترددوا في التنازل عنه لطالبيه . . هذا من ناحية . . ومن ناحية أخرى لم يكن تجار القافلة متحمسين لشرائه . . فليس هذا نوع تجارتهم .

في الصباح رحلت القافلة متجهة صوب مصر . . ولا عجب ، فمصر أرض الحضارة قديماً ، وإليها يهرع التجار للصفق . . وها هم أولاء التجار يواصلون رحلتهم الشاقة إلى مصر ، يحدوهم الأمل في تحقيق ربح وفير من تجارتهم ، لاسيما من هذا الغلام الذي اشتروه فضموه إلى تجارتهم .

وصل التجار إلى مصر ، ثم توجهوا إلى سوق الرقيق ، حيث يباع الإنسان فيه كما تباع العجاوات ، يقوم فيه الإنسان بالدرهم . . فمدار التفضيل في الذكر ، هيأته وقوة بنيته . . وفي الأنثى ، الجمال وصغر السن .

ما إن وقف التاجر في ذاك السوق البغيض ، ومعه يوسف معروضاً للبيع ، على أنه عبد رقيق ، إذا التجار جميعاً قد التفوا حوله . . كل يريد الفوز به مهما بلغ الثمن . . وذلك منافسة عن طريق المزايدة .

احتدمت المنافسة بين التجار ، حتى بلغت أشدها ، وفجأة توقفت المزايدة ، وانتهت الانظار نحو رجل يبدو أنه من ذوى السلطان والجاه . . وبكلمات موجزة مع التاجر ، أصبح يوسف مملوكاً إلى ذلك الرجل . . ذلك الرجل هو عزيز مصر .

« قال القرطبي في معرض الحديث عن الذي اشترى يوسف في مصر : قيل : « تزايدوا في ثمنه ، فبلغ أضعاف وزنه مسكاً وعنبراً وحريراً وورقاً وذهباً ولآلئ وجواهر لا يعلم قيمتها إلا الله ، فابتاعه - اشتراه - قطفير وزير ملك مصر ، من مالك ، التاجر الذي اشتراه من إخوته » .

عزير مصر يوصى زوجته بيوسف خيراً

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾

فى بيته أوصى به زوجاً لها طبعٌ مشين ٩
من قوله : فلتكرمى مثواه إكرامَ البنين ١٠
فعمَّاه ينفعُنا إذا صرنا شيوخاً طاعنين ١١
فلنتخذهُ لنا وليداً وارثاً كالوراثين ١٢

كان عزير مصر الذى اشترى يوسف ، ذا فراسة وفطنة ، فيتوسم في يوسف الأمانة والذكاء والعفة .. وقيل : كان لا يولد له ، بل قيل : لا يأتى النساء .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى كتابه «القصص القرآنى» وها هو ذا يوسف ، ينتقل من بلد إلى بلد ، يتحول من يد إلى يد ، حتى يقع أخيراً بيد رجل من مصر ، لا ندرى إلى الآن من هو هذا الرجل ، ولا المكانة التى له فى قومه .

إذاً فيوسف الآن فى مصر ، فهل يستقر به المقام فيها ؟! أم ستناقله الأيدى من بلد إلى بلد ، ومن مصر إلى مصر ، بيعاً وشراءً ، إنه الآن سلعة تباع وتشتري .

وتحدثنا الآية الكريمة ، بأن المصرى الذى اشترى يوسف ، قد رأى فيه رأياً آخر ، غير الذى كان يُسوَّى حساب يوسف عليه من قبل ، لقد كان من قبل بضاعة تباع وتشتري ، ولكنه وقد صار إلى يد هذا المصرى ، سيصبح شيئاً آخر ، غير الذى كان عليه ، لقد ضمه الرجل إليه واتخذهُ ابناً له ، ودعا امرأته إلى أن تكرمه ، وتتولى تربيته وتنشئته على ما يتربى وينشأ عليه الأبناء .

وهكذا يجد يوسف فى مصر أهلاً بديل أهله ، وأباً وأماً ^(١) فى مكان أبيه وأمه ، وهكذا صنع الله تعالى ليوسف ، ولطف به ، ليس هذا فحسب ، بل إن له عند الله مزيداً من الفضل واللطف ، فلقد تحرر من العبودية .

(١) ونحن نختلف مع الأستاذ الخطيب فى هذا التعبير ... لأن زوجة العزيز امرأة ماجنة ، بدليل أن قصة مجونها وعيها . صاغها المولى عز وجل قرآناً ، لا ينفك يتلى على سمع الدنيا .. أما أم يوسف ، فلا . المؤلف .

وهكذا عزيز مضر أوصى زوجته يوسف فقال لها : ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ احرصى على إكرامه، فلا تبخلى عليه بشيء.. أحيطيه برعايتك ، فإننى أرى فيه مخايل النجابة والذكاء والفطنة ، ونحن كما تعلمين ، فليس لنا أولاد ، أفلا نتخذه ولداً ، نمنحه الأبوة والرعاية ، ذلك بعد أن نعطيه الحرية ، فنعتقه وننزله منزلة الابن الحقيقى .

وبصفتنا لا يولد لنا كما تعلمين ، فنحن فى حاجة إلى ولد نتبناه ، يكون لنا فى حياتنا ، ویرثنا بعد مماتنا ، ولعمر الله إننا لن نجد خيراً من هذا الغلام ، إنه بهى الطلعة ، حسن الخلق والخلق ، ولا إخاله إلا سيكون ذا شأن عظيم فى هذه الحياة .

تمكين الله ليوسف وتعليمه تأويل الأحاديث

﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ... ﴾

بيت العزيز قد احتواه ، فعاش عيش المترفين ١٣
 فد مكَّن المولى ليوسف ، صار في أمن أمين ١٤
 أعطاه ربُّ العرش فضلاً ، نعم ربُّ العالمين ١٥
 أعطاه تأويل الحديث ، غدا به في المرسلين ١٦

لقد تنقل يوسف الصديق خلال محنته ، من بائع إلى مشتر ، أو من سيد قد باعه إلى سيد آخر قد اشتراه ، وقد انتهى أخيراً في بيت من أعرق البيوت في مصر .. إنه بيت حاكم مصر ، ولا عجب فبيت الحاكم يرفل في النعمة ، وهو كما ذكرنا آنفاً لا يولد له ، فليس له أولاد .. وقد توسم في يوسف النجابة والعفة ، فأوصى زوجته بيوسف خيراً فقال لها : بما أننا ليس لنا أولاد ، وبالتالي فلاغنى لنا عن الأولاد .. إذا فلتتخذ هذا ولداً ، فلن نجد خيراً منه .

أى أن يوسف قد بدأ حياة جديدة ، في بيت عزيز مصر ، حياة كلها ترف وبذخ .. لقد أغدق عليه سيده بلا تحفظ ، إنه يعامله معاملة الابن ، لا يرفض له طلباً ، كل ما في البيت تحت يده ، يتصرف فيه كيف يشاء .

لقد كانت هذه الحياة الجديدة ، أولى الخطوات في صعود يوسف نحو القمة ، برغم ما سوف يصادفه من عوامل الجذب إلى القاع ، إلا أن نجمه كان صاعداً ، كان أقوى من كل المؤثرات التي وقفت عوائق في طريق صعوده .

قال الأستاذ رشيد رضا في تفسيره « المنار » : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى وعلى هذا النحو من التدبير والتسخير ، جعلنا ليوسف مكانة عالية في أرض مصر ، كان هذا العطف عليه ، والرجاء فيه من العزيز مبدأها ، ليقع له في بيته ثم في السجن ما يقع من التجارب والاتصال بساقي الملك ، فيكون وسيلة للوصول إليه ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ كتعبير الرؤيا ، ومعرفة حقائق الأمور ، ما ينتهى به إلى الغاية من هذا التمكين .

قال القرطبي فى تفسيره : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ وكما أنقذناه من إخوته ، ومن الجب ، فكذلك مكنا له ، أى عطفنا عليه قلب الملك الذى اشتراه ، حتى تمكن من الأمر والنهى فى البلد الذى الملك مسئول عليه .

﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ وقيل : المعنى مكناه لنوحى إليه بكلام منا ، لنعلمه من تأويله وتفسيره .

وقال الفخر الرازى فى تفسيره مفاتيح الغيب : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى كما أنعمنا عليه بالسلامة من الجب ، مكناه بأن عطفنا عليه قلب العزيز ، حتى توصل بذلك إلى أن صار متمكناً من الأمر والنهى فى أرض مصر .

واعلم أن الكمالات الحقيقية ، ليست إلا القدرة والعلم ، وأنه سبحانه لما حاول إعلاء شأن يوسف ، ذكره بهذين الوصفين ، أما تكميله فى صفة القدرة والمكنة ، فإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ وأما تكميله فى صفة العلم فإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ .

المنحة فى ثنايا المحنة ليوسف

﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢١)

ربُّ السماءِ أرادَ بالصديقِ خيراً ، عن يقين ١٧
للمجد يصعدُ بالبلاء ، قضاء خيرِ الخالقين ١٨
ما شاء المولى يكونُ ، برغمِ كُرهِ الكارهين ١٩
هو غالبٌ فى ملكه والناسُ ليسوا غالبين ٢٠

الله خالق كل شىء ، ويده ملكوت كل شىء ، وإليه يرجع كل شىء ، ومن ثم فأمره نافذ فى ملكه ، لا معقب لحكمه ، ولا راد لقضائه ، إذما يشأ أمراً ، فإنما يقول له كن فيكون ، أحياناً يكون المولى عز وجل ، قد أراد خيراً من خلقه ، فيجىء هذا الخير فى صورة شرّ فيما يبدو للناس ، بحيث يصير الناس يتعجبون من قسوة الأقدار ، على هذا الذى أريد به الخير ، فى علم الله ، كما هو الحال بشأن يوسف ... وصدق الشاعر حيث قال :

وكم نعمة لا تستقل بشكرها لله فى طيِّ المكاره كامنه

وكما قال ابن عطاء الله السكندرى : « ربما كمنت المنن فى ثنايا المحن » .

قال الأستاذ أحمد بهجت فى كتابه « أنبياء الله » : ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ لقد انطبقت جدران العبودية على يوسف . . ألقى فى البئر ، أهين ، حرم من أبيه ، التقط من البئر ، صار عبداً يباع فى الأسواق ، اشتراه رجل من مصر ، صار مملوكاً لهذا الرجل ، انطبقت المأساة ، وصار يوسف بلا حول ولا قوة ، هكذا يظن أى إنسان . . غير أن الحقيقة شىء يختلف عن الظن تماماً .

ما نتصور نحن أنه مأساة ومحنة وفتنة ، كان هو أول سلم يصعده يوسف فى طريقة إلى مجده . . والله غالب على أمره ، ينفذ تدبيره رغم تدبير الآخرين ، ينفذ من خلال تدبير الآخرين ، فيفسده ويتحقق وعد الله ، وقد وعد الله يوسف بالنوبة ، وها هو يلقي محبته

على صاحبه الذى اشتراه ، وها هو السيد يقول لزوجته : ﴿ أَكْرَمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ ، وليس هذا السيد رجلاً هَيِّنَ الشَّانِ ، إنما هو رجل مهم ، رجل من الطبقة الحاكمة فى مصر . . إنه وزير خطير سماه القرآن « العزيز » وكان قدماء المصريين يطلقون الصفات كأسماء على الوزراء .

فهذا العزيز ، وهذا العادل ، هذا القوى . . إلى آخره . . وأرجح الآراء أن العزيز هو : رئيس وزراء « مصر » .

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ﴾ فيه وجهان :

الأول : غالب على أمر نفسه ، لأنه فعال لما يريد لا دافع لقضائه ، ولا مانع عن حكمه فى أرضه وسمائه .

الثانى : والله غالب على أمر يوسف ، يعنى أن انتظام أموره إلهياً ، وما كان بسعيه ، وإخوته أرادوا به كل سوء ومكروه ، والله أراد به الخير ، فكان كما أراد الله تعالى ودبر ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، أن الأمر كله بيد الله (١) وقال ابن كثير فى تفسيره : ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ﴾ أى إذا أراد شيئاً ولا يمانع ولا يخالف ، بل هو الغالب لما سواه .

وقال سعيد بن جبير : أى فعال لما يشاء : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يقول : لا يدرون حكمته فى خلقه ، وتلطفه لما يريد .

عن عبد الله بن مسعود أنه قال : أفرس الناس ثلاثة : عزيز مصر حين قال لامراته : ﴿ أَكْرَمِي مَثْوَاهُ ﴾ والمرأة التى قالت لاييها : ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ وأبو بكر الصديق ، حين استخلف عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنهما .

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازى .

امراة العزيز تحب يوسف

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢٢)

قد شبَّ يوسفُ واستوى مثل الشباب البالغين ٢١
أعطاه ربُّ العرشِ حُسناً صار وضاءً الجبين ٢٢
بل زاده فضلاً فأصبح فى عدادِ المرسلين ٢٣
زوجُ العزيزِ تحبه من نوع حبِّ الفاسقين ٢٤

لقد شب يوسف عن الطوق ، فنما وترعرع فى بيت العزيز ، بلغ مبلغ الرجال ، فاكتمل عوده ، وامتلأ حيوية وشباباً ، وقد منَّ الله عليه ، فأحسن خلقه وخلقه ، زانه بالحسن ووضاء الجبين ، فكان أجمل الناس وجهاً .

وفى الصحيح أن يوسف الصديق أعطى شطر الحسن . . أخبر بذلك محمد ﷺ ، ولما سئل عليه الصلاة والسلام ! أنت أحسن أم يوسف ؟ قال عليه الصلاة والسلام : « هو أحسن منى خلقاً ، وأنا أحسن منه خلقاً » .

وقد أتم الله نعمته على يوسف ، فأعطاه الرسالة ، فصار من الأنبياء المرسلين ، وتلك لعمر الله أعظم منة من الله بها على يوسف الصديق ، فبينما هو فى بيت سيده ، مجهول الشخصية والأصل ، هو فى نظر سيده عبد رقيق ، من عليه بالتبني . . . فارتفع بهذا من العبودية إلى مقام السيادة ، ذلك لأنه أصبح ابناً بالتبني للسيد الذى اشتراه ، والابن بالتبني كان له حقوق الابن بالنسب .

بيد أن امراة العزيز فى واد وزوجها فى واد آخر ، فزوجها أوصاها بيوسف خيراً وقال لها : أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ، هذه الوصية من زوجها ، كانت كلاماً انتهى فى حينه ، فمن ثم كان الرجل ينظر إلى يوسف نظرة أبوة حانية ، بينما المرأة تنظر إليه نظرة أخرى ، إنها تتغزل فى محاسنه ، لقد صارت تنظر إليه نظرة كلها شهوة ، إنها تشتبهه ، ولا عجب فهى أنثى مكتملة الأنوثة ، وفى مستقبل العمر أيضاً ، ويوسف معها فى بيتها ، كان كل يوم يزداد حسناً ، وهو فى نظرها ليس إلا

خادماً . . إذاً فما عليها إلا أن تأمره ، وما عليه إلا أن يطيع أمرها ، هكذا كان حديثها مع نفسها ، فالشباب والحسن والطاعة ملك لها ، وذلك كله فى يوسف !!

كان طبيعياً أن تميل إليه كامرأة . . أحبته حباً جديداً ، تمتته ، اشتتهه ، فزوجها يقضى اليوم كله خارج المنزل ، أما يوسف فهو أمامها ، لا يغيب عن ناظرها .

يا لله !! لقد أحبته امرأة العزيز ، وكم قاسى يوسف من عواقب الحب ، لقد أحبه أبوه قبلاً ، فأوغر ذلك صدور إخوته عليه ، ففعلوا ما فعلوه معه ، فصار من جراء ذلك الحب عبداً رقيقاً ، وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، وهذا حب آخر يتلى به يوسف ، إنه حبٌ ماجن ، يريد من يوسف أن يكون عبداً لشهواته .

قال ابن كثير فى تفسيره : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أى ولما بلغ يوسف أشده : أى اكتمل عقله ، وتم خلقه : ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ يعنى النبوة ، إنه حباه بها بين أولئك الأقوام : ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أى أنه كان محسناً فى عمله ، عاملاً بطاعة ربه تعالى ، وقد اختلف فى مقدار المدة التى بلغ فيها أشده ، فقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : ثلاث وثلاثون سنة . . وقال الإمام مالك وربيعة، وزيد بن أسلم والشعبي : الأشد الحلم ، وقيل : غير ذلك والله أعلم .

وقال القرطبي فى تفسيره : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أشده، عن سيبويه جمع ، واحدة شدة ، وقال الكسائى : واحدة شدة وزعم أبو عبيد ، أنه لا واحد له من لفظه عند العرب، ومعناه استكمال القوة ، ثم يكون نقصان بعد . . وقال مجاهد وقتادة : الأشد ثلاث وثلاثون سنة .

وقال ربيعة وزيد بن أسلم ومالك بن أنس : الأشد : بلوغ الحلم ، ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ قيل : جعلناه المستولى على الحكم ، فكان يحكم فى سلطان الملك : أى وآتيناه علماً بالحكم ، وقال مجاهد : العقل والفهم والنبوة ، وقيل : الحكم ، النبوة ، والعلم ، علم الدين ، وقيل : علم الرؤيا ، ومن قال : أوتى النبوة صبيّاً قال : لما بلغ أشده زدناه فهماً وعلماً ، ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ يعنى المؤمنين ، وقيل : الصابرين على النوائب كما صبر يوسف . . وقال القرطبي : هذا وإن كان مخرجه ظاهراً على كل محسن ، فالمراد به محمد ﷺ . . يقول تعالى : كما فعلت هذا بيوسف ، بعد أن قاسى ، ثم أعطيته ما أعطيته ، كذلك أنجيك من مشركى قومك ، الذين يقصدونك بالعداوة ، وأمكن لك فى الأرض .

امرأة العزيز تفكر في استمالة يوسف

صارت تناجي نفسها في حبه كالحالمين ٢٥
الذئب في أعماقها يعوى عواء الجائعين ٢٦
من أجل هذا قررت أمراً بتدبير متين ٢٧

صارت امرأة العزيز، تفكر في أمر يوسف تفكيراً جاداً، إن هذا الأمر استحوذ على عقلها ومشاعرها، تنام وهي تفكر فيه، وعندما تستيقظ من نومها، تستدعيه ليمثل أمامها ، لقد أهملت كل شيء في حياتها ومجتمعها وبيتها ، وأولت هذا الأمر كل اهتمامها .

إنها تفكر تجهد نفسها في التفكير ، في كيفية احتواء يوسف واجتذابه ، ولعلها ذهبت بتفكيرها إلى أبعد من هذا . . إن الذي يقلقها ويثير حيرتها هو : أن يوسف لا يبدي نحوها أى نظرة إعجاب أو اشتها، كأنه متبلد المشاعر ، ليس فيه حرارة الشباب .

ثم تحيب على تلك التساؤلات فتقول لنفسها: ربما كان سلوكه هذا الذي يتسم بالسلبية، نابعاً من منطلق شدة احترامه لى لكونى سيده ، إذأ فهو يكتم إعجابه بى فى أعماقه ، لعدم التكافؤ بينى وبينه . . فهو فى رأيه ، لا أمل لديه من التطلع إلى القمة ، بينما هو فى السفح . . ثم تتساءل . . ماذا أصنع !؟

وانطلاقاً من هذا التساؤل، أخذت تفكر فى وسيلة ناجحة لاحتواء يوسف واستمالاته، وجعله ملكاً لها قلباً وقالباً . . ولاغرو فهي تملكه قالباً لكونه خادمها ، فمن ثم تريد أن تملك قلبه أيضاً .

صارت تقلب وجوه الآراء، بحثاً عن رأى صائب، وأخيراً هبط عليها الوحي الشيطاني، لقد أوحى لها شيطانها بفكرة مرت بخاطرها، كموجة أثيرية ، فالتقطتها ، أمسكت بها ، تصورتها الحل السحري لمشكلتها التى تعانى منها وتقض مضجعها .

ملخص هذه الفكرة هى : أن تتلطف مع يوسف وتُشعره بكيانه ، كشاب له رأيه وشخصيته ، بهذه الطريقة سيتحطم الحاجز الذى يفصل بينها وبين يوسف ، ثم بعد ذلك تستدرجه إلى مخدعها ، وهل هو إلا رجل ككل الرجال . . ثم تقول لنفسها :

إننى أرى نظرات الرجال تلاحقنى بالإعجاب ، تريد أن تلتهمنى شهوة واشتهاء ، هذا من ناحية،ومن ناحية أخرى ،فهو خادمى ، وحينما أمره سوف يزول القناع الذى يخفى وراءه مشاعره نحوى ، وبالتالي يصير رهن إشارتى .

لقد اطمأنت إلى صحة فكرتها ، فبدأت تلاطف يوسف باللين ، وتتحدث معه دون ترفع،وبصوت فيه تكسر وخلاعة . . إن فى أعماقها ناراً مشبوبة ، كلما وقع بصرها على يوسف زادت تأججاً .

امراة العزيز بدأت فى تنفيذ خطتها

﴿ وَرَأَوْدَتَهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ... ﴾

هَمَّتْ تُنْفِذْ خُطَّةً مِنْ وَحَى إِبْلِيسَ اللعين ٢٨
فِي مَخْدَعٍ قَدْ هَيَّأَتْهُ إِلَى لِقَاءِ العاشقين ٢٩
نَادَتْ عَلَى الصَّدِيقِ أَقْبِلْ مُسْرِعاً كَالخادمين ٣٠
نَادَتْهُ وَالشَّوْبُ الرَّقِيقُ يَشْفُ عَنْ جَسَدِ فِتْنِ ٣١

كما ذكرنا آنفاً، فإن زوجة العزيز، سلكت مسلكاً جديداً فى معاملتها ليوسف الصديق، كان وراء هذا السلوك الجديد، خطة رسمتها زينها لها شيطانها، عليه اللعنة، ولا عجب فى ذلك فإبليس اللعين هو مفكرها، المستولى على عقلها وفكرها، يأمرها فتطيع أمره .

وفعلاً بدأت تنفذ خطتها، بالتنازل عن كبريائها، وملاطفة يوسف، ثم انتقلت إلى المرحلة الثانية من الخطة وهى الأخيرة أيضاً .

تجملت وتزينت كما لم تتجمل وتزين من قبل، وفى غرفة نومها التى جمعتها، بحيث صارت تخلب لب كل من رآها، وتثير فى نفسه كوامن الجنس والشيق .

لقد اضطجعت على سريرها فى وضع مثير، بحيث تبدو مفاتن جسدها، ثم نادى على يوسف الصديق، بصوت فيه ليونة وتكسر، ودفء ودلال أيضاً، قالت: يا يوسف! أجابها، لييك يا سيدتى، وأقبل مسرعاً كعادته حينما كانت تناديه من قبل .

كانت ترتدى ثوباً رقيقاً يشف عن جسد بضع، مملوء حيوية وشباباً، فيه جمال وفتنة، ورغبة مشبوبة تتأجج فى أعماقها .

لقد استنفذت كل الوسائل لإغرائه واستمالته، سنين طويلة، كان ذلك كله تلميحاً . . فقد كانت قبل ذلك تستدعيه، وهى فى غرفة نومها، مستلقية على سريرها بملابس النوم، فتأمره أن يحضر لها شيئاً ما . . وكانت تختلق الأحاديث معه، وهى على تلك الحالة، ليطيل المكث معها فى غرفتها، كل هذا كان الغرض منه أن تلمح منه نظرة جانبية، إلى جسدها الذى يحترق شوقاً وتعطشاً إلى الجنس . . الجنس الذى غلب

على عقلها ، وعلى تفكيرها ، ثم انعكس على سلوكها .

بيد أن يوسف الصديق في كل هذا معرض كل الإعراض ، ليس في قلبه شيء مما يدور في رأس امرأة العزيز وفكرها .

قال الفخر الرازي في تفسيره : ﴿ وَرَأَوْدَتُهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ اعلم أن يوسف ﷺ كان في غاية الجمال والحسن . فلما رآته المرأة طمعت فيه ، ويقال أيضاً : إن زوجها كان عاجزاً يقال : راود فلان جاريته عن نفسها ، وراودته هي عن نفسه ، إذا حاول كل واحد منهما الوطء والجماع .

وقال ابن كثير في تفسيره : ﴿ وَرَأَوْدَتُهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ أى حاولته على نفسه ، ودعته إليها ، وذلك أنها أحبته حباً شديداً لجماله وحسنه وبهائه ، فحملها ذلك على أن تجملت له .

وقال القرطبي في تفسيره : ﴿ وَرَأَوْدَتُهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ وهى امرأة العزيز ، طلبت منه أن يواقعها ، وأصل المراودة ، الإرادة والطلب برفق ولين . . والرود والرياد ، طلب الكلاً ، وقيل : هى من رويد ، يقال : فلان يمشى رويداً ، أى يرفق ، فالمراودة ، الرفق فى الطلب ، يقال فى الرجل : راودها عن نفسها ، وفى المرأة ، راودته عن نفسه ، والرود ، الثانى ، يقال : أرودنى . أمهلنى .

امرأة العزيز أخطأت في ظنها

﴿ وَغَلَقَتِ الْأَبْوَابَ ﴾

قد أغلقت أبوابها منعاً لكلّ القادمين ٣٢
كانت تظن بأن يوسف كالرجال الفاسقين ٣٣
ما أن تُشير إليه ، يأتيها مجيء الراغبين ٣٤
لكن يوسف كان عفواً من سُلالة صالحين ٣٥

حينما قررت امرأة العزيز ، أن تنفذ خطتها التي تصورتها ناجحة ، وأنها سوف تحقق حلمها الذي تحلم به ، ألا وهو : استمالة يوسف وجعله طوع بنانها ، كانت قد أغلقت كل الأبواب ، بحيث لا يستطيع أحد أن يلج داخل البيت ، دون أن يطرق الباب .

كانت تظن أن يوسف ، كأى رجل ، إذ كل الرجال يعجبهم الجمال ، وهى فى قمة الجمال ، وتعتقد أيضاً أن أى رجل ، لا يمتنع عن تلبية دعوة لقضاء وقت فى أحضان الجمال والمتعة . . ذلك لأن الجنس هو الذى يسيطر على تفكير الرجل والمرأة حينما يلتقيان ، ولا سيما إذا ما كانا إلى الشباب أقرب .

هكذا كان تصورها عن الرجال ، بصفة عامة ، وفى رأيها أن يوسف هذا ما هو إلا واحد منهم .

بيد أن سؤالاً يبرز فى أعماقها ينفى هذا التصور عن يوسف . . هذا السؤال هو : لو كان يوسف كالرجال الآخرين الذين يركعون تحت أقدام الغانيات ، طلباً للمتعة الجسدية ، فلماذا لم تَرى منه استجابة لتلميحات منك له . كانت أكثر تصريحاً من التصريح نفسه . . ؟! ولم تَرى منه حتى مجرد نظرة اشتها جريئة ، أو حتى خجلة . . ؟!

هذا السؤال ، لم تستطع أن تجيب عليه ، إنه سؤال منطقي ، وكان ينبغى عليها أن تراجع حساباتها ، فيما قررت بشأن يوسف ، غير أن صوت الوحش فى أعماقها ، طغى على عقلها ، فظلت ماضية فى تنفيذ خطتها .

هكذا فى رأى كان تصورها ، أو قريباً من هذا . . وقد خاب رأيها وتصورها أيضاً .

فيوسف الصديق كان عفواً طاهراً من سلالة طاهرة عفيفة، إنه سليل بيت النبوة ، هو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم .

قال الفخر الرازي في تفسيره : ﴿ وَغَلَقَتِ الْأَبْوَابَ ﴾ والسبب أن ذلك العمل ، لا يؤتى به إلا في المواضع المستورة ، لاسيما إذا كان حراماً ، ومع قيام الخوف الشديد .

وغلقت الأبواب : أى أغلقتها . . قال الواحدي : وأصل هذا من قولهم فى كل شيء تشبث فى شيء فلزمه ، قد غلق يقال : غلق فى الباطل ، وغلق فى غضبه ، ومنه غلق الرهن ، ثم يعدى بالألف فيقال : أغلق الباب ، إذا جعله بحيث يعسر فتحه .

قال المفسرون : وإنما جاء « غلقت » على التكرير ، لأنها غلقت سبعة أبواب ، ثم دعت إلى نفسها .

امرأة العزيز تدعو يوسف لارتكاب الفاحشة

﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾

قالت : فإنسى « هيت لك » أقبل وكن فى الأمنين ٣٦
أقبل فإن الشوق يغلبنى إليك مع الحنين ٣٧

لقد ظلت امرأة العزيز زمناً طويلاً ، تمنى نفسها بشيء كانت تتصوره سهل المنال ، ألا وهو : احتواء يوسف الصديق ، فيظل لها عبداً وعاشقاً فى آن واحد ، ومن ثم يظل سرّاً مخفياً ، بعيداً عن دائرة الشك والظن لدى كل المحيطين بها . . كل هذا كان حديثاً مع نفسها ، وحواراً يدور فى أعماقها .

ثم خرجت من حديث النفس ، إلى العلانية . . من عوامل المد والجزر التى تتصارع فى أعماقها ، إلى الواقع ، إلى الترجمة الحقيقية لكل أحاسيسها وتصوراتها ، إلى المصارحة المكشوفة . . لقد مزقت أقنعة الحياء . . فقالت ليوسف : ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى كتابه « القصص القرآنى » و « هيت لك » هو صوت استدعاء لهذا الأمر الذى يكون بين الرجل والمرأة ، وقد جاء به القرآن الكريم على هذه الصورة التى لم تعرفها اللغة العربية ، فى لسانها قبل نزول القرآن وذلك أدب رفيع من أدب الشريعة الإسلامية ، وأدب كتابها الكريم ، وذلك أن هذا الأمر الذى يتحدث عنه القرآن، من شأنه أن يكون سرّاً بين الرجل والمرأة ، لا يطلع عليه غيرهما . . إنها لغة يفهمها الزوجان ، سواء أكانت بإشارة أم بعبارة .

هذا هو المفهوم الذى يعطيه هذا الصوت « هيت لك » ودع عنك ما ذهب إليه الذاهبون من تأويلات وتخريجات لكمة « هيت لك » وخذها على أنها حكاية صوت ، مصحوبة بإشارة يد ، أو لحظ عين ، لا على أنها من لغة التخاطب المتعامل بها فى قاموس اللغة ، إنها فى مقامها هنا ، كلمة استدعاء وإغراء وكفى !

فى القرطبى عن ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ قال : « قال أبو عبيد : كان الكسائى يقول : هى لغة لأهل حوران وقعت إلى أهل الحجاز ، معناه تعال ، قال أبو عبيد : فسألت شيخا

عالمًا من حوران ، فذكر أنها لغتهم ، وبه قال عكرمة . وقال مجاهد وغيره : هي لغة عربية تدعوه بها إلى نفسها ، وهي كلمة حث وإقبال على الأشياء . . . » .

قال الفخر الرازي في تفسيره : ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ .

قال الواحدى : هيت لك ، اسم للفعل نحو : رويداً ، وصه ، ومه ، ومعناه : هلم فى قول جميع أهل اللغة .

وقال الفراء : إنها لغة لأهل حوران ، سقطت إلى بكة فتكلموا بها . . . وقال ابن الأنبارى : وهذا وفاق بين لغة قريش وأهل حوران . كما اتفقت لغة العرب والروم فى - القسطاس - ولغة العرب والفرس فى - السجيل - ولغة العرب والترك فى - الغساق - ولغة العرب والحبشة فى - ناشئة الليل .

يوسف يستعيز بالله ويرفض الدعوة

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢٣)

فأجابها فوراً « معاذ الله » رب العالمين ٣٨
لا ، لستُ خَوَّاناً ، فهذا من صفات الخائنين ٣٩
لا ، لن أخونَ لسيدى ، قد كان لى فى المكْرَمين ٤٠
إن الخيانةَ دون شكٍّ من صفات الظالمين ٤١
والظالمون فلن يكونوا فى عداد المفلحين ٤٢

بعد الحوار الذى دار بين يوسف الصديق، وزوجة العزيز، وتنازلت بعده عن كبرياتها، وكشفت عن مكنون صدرها ، فصرحت ليوسف بحبها ، فدعته دعوة صريحة إلى الحب المالحن ، فقالت له ما معناه : إنى مشتاقة إليك ، هلم إلى الحب ، إلى الشباب ، إلى العز ، إلى المجد فى أحضانى ، لاتخف من شىء مادمت معى وفى طاعتى .. إلخ .

فكان جواب يوسف على هذه الدعوة الماحجة ، دون أدنى تردد أو تفكير أن قال : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ يا الله !! يوسف الصديق ، برغم ما تهيأ له وأمامه من وسائل الإغراء .. جو مشحون بالإثارة ، أمام عينيه ، وملء أذنيه ، وبرغم هذا كله قال : « معاذ الله » لاشك فى أن قلبه عامر بالإيمان ، ومن ثم فهو لم يتأثر بكل ما هيأته له امرأة العزيز من إغراء وإثارة ، لتحقيق رغبتها المتأججة .

ثم أردف يوسف قائلاً : ﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

قال الأستاذ رشيد رضا فى تفسيره « المنار » فى ﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ أى إنه تعالى ولى أمرى كله ، أحسن مقامى عندكم ، وسخركم لى بما وفقنى له من الأمانة والصيانة ، فهو يعيذنى ويعصمنى من عصيانه وخيانتكم ... ويحتمل أنه أراد بربه ، مالكة العزيز فى الصورة، وإن كان حراً مظلوماً فى الحقيقة ، كما يقال : رب الدار .. وكان من عرفه إطلاقه على الملوك والعظماء ، كما يأتى فى قوله عليه السلام لساقى الملك فى السجن : ﴿ اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ .

« قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب في قوله : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ بهذا الأسلوب الرصين الوديع ، كأن رد يوسف على مادعته إليه امرأة العزيز ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ أى عياداً بالله ، ولجأ إليه ، واحتماء به من هذا السوء الذى يدعى إليه ﴿ إِنَّهُ رَبِّي ﴾ أى إن هذا السيد الذى أنت زوجه ، هو ربى ، أى سيدى الذى ضمنى إلى بيته ، وأكرم مثواى عنده ، وخيائته في أهله عدوان على المروءة والخلق الكريم ، إذ كيف يقابل الإحسان بالإساءة ، والإكرام بالغدر والخيانة ؟! إن ذلك ظلم أى ظلم .. وإن الظالمين لا يفلحون أبداً . ويجوز أن يكون قوله : ﴿ إِنَّهُ رَبِّي ﴾ مراداً به الله سبحانه وتعالى ، هو سبحانه الذى أحسن مثوى يوسف ، وهياً له الطريق إلى بيت هذا البيت الذى وجد فيه الطمأنينة والأمن .. » .

قال الفخر الرازى فى تفسيره :

إن المرأة لما ذكرت هذا الكلام ، قال يوسف ﷺ : ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ فقلوه تعالى : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ أى أعوذ بالله معاذاً .

والضمير في قوله تعالى ﴿ إِنَّهُ ﴾ للشأن والحديث ﴿ رَبِّي ﴾ أى ربى وسيدى ومالكى ﴿ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ حين قال لك : « اكرمى مثواه » فلا يليق بالعقل أن أجازيه على ذلك الإحسان بهذه الخيانة القبيحة ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ الذين يجازون الإحسان بالإساءة ، وقيل : أراد الزناة لأنهم ظالمون أنفسهم ، أو لأن عملهم يقتضى وضع الشيء فى غير موضعه .

واستطرد الفخر الرازى فى قوله وتساؤلاته وأجوبته عليها إلى أن قال :

السؤال الثالث : ذكر يوسف ﷺ فى الجواب عن كلامها ثلاثة أشياء :

الأول : قوله تعالى : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ .

الثانى : قوله تعالى ﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ .

الثالث : قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

الجواب : هذا الترتيب فى غاية الحسن ، وذلك لأن الانقياد لأمر الله تعالى ، وتكليفه أهم الأشياء ، لكثرة إنعامه وألطافه فى حق العبد .

هم امرأة العزيز .. أن تضرب يوسف

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ... ﴾

همت لتأخذه ، أبى ، فى عفة المتبتلين ٤٣
لما أبى فقدت صواباً ، أصبحت كالذاهلين ٤٤
جرحت كرامتها فصارت كالوحوش الكاسرين ٤٥
بالضرب قد آذته ، هم يمنعها كى تستكين ٤٦

كما أسلفنا ، فإن يوسف الصديق ، رفض الاستجابة لدعوة امرأة العزيز دونما تفكير ، وبغير تردد فقال : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ فتصورت زليخا - امرأة العزيز - أن يوسف ما رفض الاستجابة لدعوتها ، أو الإذعان لأمرها ، للرفض ذاته .. وإنما رفض ليتأكد من صدق دعوتها ، فاقتربت منه مبدية تودداً وحباً ، ثم همت لتحتويه بين أحضانها ليهدأ ويطمئن ، فلا ينفرد ولا يفر ، وليشعر بأن الحواجز بينها وبينه قد تحطمت ، وأن دعوتها له صادقة لا شك فيها ، فما عليك إلا أن يأخذ حظه من الجمال والحب ، الذى تهيأ له دونما أدنى جهد منه .

بيد أنها فوجئت به يؤكد رفضه ، ويخيب ظنها وما قد تصورته ، فابتعد عنها فى إباء وترفع ، وفى الوقت نفسه لم يملأ عينيه بالنظر إليها .. فى حين أن يوسف الصديق ، كان مكتمل الرجولة ، فهو شاب يجد من شبق الشباب ، ما يجده كل شاب لرؤيته امرأة حسناء ، لاسيما إذا ما كانت شبه عارية ، تدعوه وتشوقه إلى نفسها .. فى هذه الحالة ، نحن لا ننكر الهم من يوسف ، بيد أنه هم عارض ، كالخطرة فى القلب ، وحديث النفس .. ومثال ذلك : أن الرجل الصالح الصائم فى الصيف الصائف ، إذا رأى الماء البارد ، فإن طبيعته تشتهيه ، إلا أن دينه يمنعه من ذلك .. وكان هم يوسف من هذا النوع ، من غير اختيار ولا عزم ، فمن ثم كانت قوة إيمانه ، أقوى من الهم العارض ، ومن حديث النفس ، فى هذا الموقف ، شعرت زليخا بإهانة عظيمة ، ودار فى خاطرها هذا السؤال ! كيف يجرؤ يوسف على رفض أمرها ؟! فهو لم يرفض لها أمراً من قبل ذلك .

وانطلاقاً من هذه المعانى التى تدور فى خاطرها ، وانعقد عليها فهمها وعقلها ، هاجت غاضبة ، أقبلت على يوسف ، متغيرة سحتها ، تريد أن تفتك به ، كأن لها ثأراً عنده ، فانهالت عليه بالضرب ، حتى أوجعته وأذته ، فهى تتصور أنها تملكه ، ومن ثم فليس له الحق أن يرفض لها أمراً .

« قال الأستاذ رشيد رضا فى تفسيره « المنار » ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾ أى وتالته لقد همت المرأة بالبطش به لعصيانه أمرها ، وهى فى نظرها سيدته وهو عبدها ، وقد أذلت نفسها له بدعوته الصريحة إلى نفسها ، بعد الاحتيال عليه بمراودته عن نفسه . . ومن شأن المرأة أن تكون مطلوبة لا طالبة ، ومراودة عن نفسها لا مراودة . . ثم مضى فى قوله إلى أن قال: ولكن هذا العبد العبرانى ، الخارق للطبيعة البشرية فى حسنه وجماله ، وفى جلاله وكماله ، وفى إباطه وتألّه قد عكسر القضية ، وخرق نظام الطبيعة والعوائد بين الجنسين ، فأخرج المرأة من طبع أنوثتها فى إدلالها وتمنعها ، وهبط بالسيدة المالكة من عزة سيادتها وسلطانها ، ودهور الأميرة من عرش عظمتها وتكبرها ، وأذلها لعبدها وخادما . . إلخ ما قال » .

هم يوسف .. أن يضرب المرأة

﴿ وَهُمْ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾

أبتِ التراجعَ هم يضربُها ، رأى النور المبين ٤٧
فلقد رأى البرهانَ فى أعماقه ، هذا يقين ٤٨
معناه ، إن تضربُ رليخا ، نالك الغمز المبين ٤٩
فلتصبرنَ على أذاها ، لاتكنُ كالجاهلين ٥٠

كما أسلفنا ، فإن امرأة العزيز ، انهالت على يوسف الصديق تضربه ، ثاراً لكرامتها المهذرة ، لقد صارت كاللبوة الشرسة ، تضربه بكل قوتها ، وهو يحاول منعها ودفعها عن نفسه ، فلا تمتنع ، بل تزداد عدواناً وتهوراً .

وهو مع هذا ممسك بزمام نفسه ، كاظم غيظه ، وهو قادر على رد العدوان ، لكونه رجلاً فيه القوة والشباب .. وأن التى تعتدى عليه هذه ما هى إلا امرأة ماجنة .. إنه فى صراع داخلى مع نفسه .. أیظل هكذا مكتوف الإرادة أمامها ، تضربه ولا يردّها؟! إن حاله معها يقول: نعم .. نظراً لكونه عبداً وهى سيده ، فليس له حق الاعتراض . أم أنه يثور لكرامته ، ويمنعها من الاعتداء عليه بكل وسيلة ممكنة .. فهو كإنسان له طاقة تحمل ، وقد أذاه الضرب وأوجعه .. وحينئذ تحركت فيه كوامن حريته المسلوبة ، فهمّ أن يبطش بالمرأة بقوم وحزم .. فلقد صبر على أذاها كثيراً .. فلا ينبغي أن يظل فى موقف المدافع عن نفسه كأنه اقترف جرماً .. بينما هو البريء الشريف .

لقد هم أن ينفذ ما عزم عليه فى أعماقه، بيد أن الله عز وجل، تداركه بحكمته فأراه البرهان . البرهان الذى أنقذه من خطر كان ينتظره لو أنه فعل ما عزم عليه . هذا البرهان كان شعوراً شعر به فى أعماقه، معناه . إياك يا يوسف أن تفعل شيئاً مما عزمت عليه فى أعماقك ، فإنك إن ضربتها، قامت الحجة عليك بأنك راودتها عن نفسها، وأنت أردت بها سوءاً .

ومن ثم فلن تستطيع إثبات براءتك ، ولا غرو فهى سيدة عظيمة ذات مركز خطير ، وسوف تجد أنصاراً يؤيدونها ، ويصدقون قولها . نظراً لجاهها وسلطانها .. وأنها لا يمكن أن تقارف مثل هذا العمل ، لا سيما مع خادمها !!!

أما أنت، فنظراً لكونك في نظر الناس، عبدها وخادمها، فسوف يصدقون ما قيل عنك؛ ذلك لأنك من طبقة الخدم والعبيد، وهم طبقة سفلى. ولا يبالون من ارتكاب الفواحش والمساوي. فما عليك إلا أن تصبر على أذى هذه المرأة، لا تكن كالحمقى الجهلاء، الذين لا يقدرّون للعواقب قدرها. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فلتعلم يا يوسف أنك لو ضربتها، فسوف يكون مصيرك الهلاك، لأنها في هذه الحالة سوف تأمر الحاضرين من الخدم في البيت، بأن يقتلوك. إذا فالامتناع عن ضربها فيه صون لنفسك من الهلاك.

مع المفسرين في قولهم في: ﴿وَهُمْ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ :

قال القرطبي: واختلف العلماء في همه ﷺ، ولا خلاف في أن همها كان المعصية، وأما يوسف فهمّ بها، ولكن لما رأى البرهان، ما هم، وهذا لوجوب العصمة للأنبياء، فإذا في الكلام تقديم وتأخير، أي لولا أن رأى برهان ربه هم بها. قال أبو حاتم: كنت أقرأ غريب القرآن، على أبي عبيدة، فلما أتيت على قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ قال أبو عبيدة: هذا على التقديم والتأخير، كأنه أراد، ولقد همت به، ولولا أن رأى برهان ربه، لهم بها. وقال أحمد بن يحيى: أي همت زليخا بالمعصية، وكانت مصرة، وهم يوسف ولم يواقع ما هم به، فبين الهمتين فرق.

وقيل: إن هم يوسف، كان معصية، وأنه جلس منها مجلس الرجل من امرأته، وإلى هذا القول ذهب معظم المفسرين وعامتهم، فيما ذكره القشيري أبو نصر وابن الأنباري والنحاس والماوردي وغيرهم.

قال ابن عباس: حل الهميان - شداد السراويل - وجلس منها مجلس الخاتن، وعنه: استلقت على قفاها، وقعد بين رجليها ينزع ثيابه، وقال سعيد بن جبير: أطلق تكة سراويله، وقال مجاهد: حل السراويل حتى بلغ الألتين، وجلس منها مجلس الرجل من امرأته.

ثم عقب القرطبي على هذا الأقوال وغيرها فقال: وهذا كله على أن هم يوسف بلغ فيما روت هذه الفرقة إلى أن جلس بين رجلي زليخا، وأخذ في حل ثيابه وتكته ونحو ذلك، وهي قد استلقت له على قفاها حكاه الطبري. وقال أبو عبيد القاسم ابن سلام، وابن عباس من دونه، لا يختلفون في أنه هم بها، وهم أعلم بالله، ويتأويل كتابه.

قيل: رأى يوسف في سقف البيت مكتوباً: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢] وقال ابن عباس: بدت كف مكتوب عليها: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ وقيل: نودي يا يوسف! أنت مكتوب في ديوان الأنبياء، وتعمل عمل السفهاء؟! وقيل: رأى

صورة يعقوب على الجدران، عاضاً على أُمِّلته يتوعده فسكن، وخرجت شهوته من أنامله .

هذه الأقوال موجودة في معظم التفاسير، من المفسرين من يؤيدها، ومن ينكرها، ومنهم من يذكرها فلا ينكرها ولا يؤيدها . . . !! ولا غرو، فلنا على هذه الأقوال بعض المآخذ :

١ - أن ابن عباس الذى يعتبر من أفقه أصحاب رسول الله ﷺ ، وذلك ببركة دعاء رسول الله له حيث قال : « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل . . . » أقول إنه لا يمكن أن يقول هذا القول ، وأنفى عنه بشدة ، هذا القول المنسوب إليه .

٢ - أن يوسف ﷺ سليل السلسلة الذهبية من الأنبياء، فهو يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله، لا يمكن أن يأتى هذا العمل، ذلك لأن من الناس، من هم ليسوا بأنبياء ولا أولياء، تنزهوا عن مقارفة هذه الجريمة مثل سليمان بن يسار وغيره كثيرون .

٣ - أن يوسف إن لم يكن نبياً إبان هذه القصة، فهو موعود بالنبوة فهل يعقل أن يقدم على هذا العمل، ولا يتراجع إلا بعد رؤيته البرهان . إن هذا البرهان أو البراهين التى ذكرت، لو رآها أشرّ الناس، ممن ألفوا ارتكاب الفاحشة، لما ظل فيه عرق ينبض للقيام بمهمة الجماع، ومن ثم فإننى أنفى بشدة، هذا القول المنسوب لابن عباس، وأنفى بأشد منه عن يوسف أنه هم بالمعصية، وما منعه من إتيانها إلا رؤية البرهان، أو البراهين المزعومة، هذه الأقوال لا إخالها إلا من الإسرائيليات التى نقلها إلينا حاطبو الليل ، الشغوفون بكل غريب .

وهاكم رأينا عن هم يوسف والبرهان الذى رآه .

البرهان ليوسف الصديق كان معنوياً

هـى دون شكٍ من ذواتِ النقصِ فى عقلٍ ودينٍ ٥١
فاصبرُ كصبرِ الأنبياءِ ، فقد غدواً فى الخالدين ٥٢
ولأنتَ ذو عقلٍ رجيحٍ ، فى عدادِ المرسلين ٥٣
ذاكم هو البرهانُ فى الأعماقِ ، رؤيا المتقين ٥٤

ها نحن أولاء نواصل الحديث الذى تصورناه ، أن الله عز وجل أوحى ليوسف الصديق به .. أوحى له به فى أعماقه ، وهو :

إنها امرأة يا يوسف ، والمرأة موصوفة بالضعف ، فضلاً عما عرف عنها من النقص فى الدين والعقل معاً ، يؤيد هذا المعنى ويؤكد ما رواه الإمام مسلم عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يا معشر النساء ! تصدقن وأكثرن الاستغفار ، فإنى رأيتكن أكثر أهل النار » . فقالت امرأة منهن جزلة - فصيحة جريئة - ومالنا أكثر أهل النار يا رسول الله ؟! قال : « تكثرن اللعن ، وتكفرن العشير ، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لبُّ منكن » ، قالت : يا رسول الله ! ما نقصان العقل والدين ؟! قال : « أما نقصان عقلها ، فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل ، فهذا نقصان العقل ، وتمكث الليالى لا تصلى ، وتفطر فى رمضان ، فهذا نقصان الدين » .

ويواصل صوت الوحي نصحه ليوسف الصديق فيقول كما تصورناه : اصبر يا يوسف ، لا تتعجل ، عاملها كامرأة وأنت رجل ونبى .. فلقد صبر الأنبياء قبلك على ما هو أشق وأمر من ذلك ، وإن شئت مجداً وخلوداً ، فإياك من عمل يكون فيه حماسة ، تكون نتيجته عليك لالك .

يا يوسف ! إنك مكتمل العقل ، وقد اخترناك لأعباء الرسالة ، وأنت أيضاً من سلالة كريمة ، أنت من آل بيت النبوة ، فينبغى أن تتحلّى بالحكمة والحزم ، وأن تنظر إلى هذا الأمر نظرة واعية ، فيها الفطنة ، وفيها استجلاء لما سوف يترتب على ذلك الفعل الذى تفكر فيه ... هذا هو البرهان الذى رآه يوسف فى أعماقه ، والذى معناه

ما ذكرناه . . إنه برهان أضاء قلب يوسف وعقله وفكره أيضاً ، فرأى الصواب ، بعد أن كان محجوباً عنه ، تحجبه ظلمات الموقف ، ورائحة الخطيئة التي تحيط به ، توشك أن تمسك بتلابيبه ، وهو لا يكاد يرى لنفسه مفرّاً منها .

قال الأستاذ رشيد رضا فى تفسيره « المنار » ، « . . فكان الفرق بين همّها وهمه ، أنها أرادت الانتقام منه ، شفاءً لغيظها من خيبتها ، وإهانتها لها ، فلما رأى أمانة وثوبها عليه ، استعد للدفاع عن نفسه ، وهمّ بها ، فكان موقفهما موقف الموائبة ، والاستعداد للمضاربة ، ولكنه رأى من برهان ربه وعصمته ما لم تره هى مثله ، فألهمه أن الفرار من هذا الموقف ، هو الخير الذى تتم به حكمته سبحانه وتعالى ، فيما أعده له ، فلجأ إلى الفرار ترجيحاً للمانع على المقتضى » .

صرف السوء والفحشاء عن يوسف

﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٢٤)

ولنصرفنَّ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ عَنْكَ لِتَسْتَبِينَ ٥٥
إِذْ أَنْتَ صَفَوْتُنَا سُلَالَةً أَنْبِيَاءٍ مُخْلِصِينَ ٥٦
لَمَّا تَحَقَّقَ يَوْسُفُ مِنْ ذَلِكَ النَّصِيحِ الْأَمِينِ ! ٥٧

وهكذا يكون البلاء ، لاختبار معدن المبتلى ، ولا غرو فالبلاء يشبه البوتقة التي تنصهر فيها المعادن ، ليظهر نقيسها من رديتها . . . تلکم هي سنة الله في خلقه ، أن يتلهم ويفتنهم في دينهم ، فقال عز وجل : ﴿ أَلَمْ أَحْصِبِ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت] ثم يستدرك الله بلطفه ورحمته ، عباده المخلصين ، فينصرهم ويقويهم على كل ما يصادفهم من المحن والأهوال ، وإذا هم خرجوا من محنة الابتلاء ، منتصرين مرفوعي الرؤوس .

يؤيد هذا المعنى ما روى عن المعصوم محمد ﷺ أنه قال حينما سئل ، أى الناس أشد بلاءاً ؟ قال : « الأنبياء ، ثم الأمثل ، يتلى الناس على قدر دينهم ، فمن ثخن دينه اشتد بلاؤه ، ومن ضعف دينه ضعف بلاؤه ، وإن الرجل ليصيبه البلاء حتى يمشى على الأرض ما عليه من خطيئة » . رواه ابن حبان .

« وأعجبنى كلمات للأستاذ عبد الكريم الخطيب في كتابه «القصص القرآني» ، « إن الرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، مبتلون بما يتلى به الناس ، بل وأقصى وأعظم ما يتلى به الناس ، من فتن تلح عليهم بكل أثقالها ، فيلقونها بعزوماتهم ، ويصدونها بإيمانهم ، ويستعصمون منها بكل ما في طاقتهم من قوى ، حتى إذا استنفذوا كل ما في كياناتهم من صبر تحتمله الطاقة البشرية ، وكادوا يهزمون في هذا الصراع المحتدم ، جاءهم نصر الله ، وتوافدت عليهم أمداده وألطافه ، فربطت على قلوبهم ، وثبتت من أقدامهم ، وإذا هم في مقامهم الرفيع الكريم ، وإذا الفتن صرعى بين أيديهم ، معفرة بتراب الخزي والاندحار ، ثم يقول أيضا : وأى فضل لأنبياء الله ورسله ، على غيرهم

من الناس، إذا هم لم يُبتلوا أعظم ابتلاء، ولم يُمتحنوا أشد امتحان ، وإذا هم لم يجاهدوا هذا الجهاد المتصل فى قهر الفتن ، ودحر الأهواء ، ومغالبة الشهوات ، وأي فضل لهم إذا كانت الفتن لا تحوم حولهم ، والأهواء لا تتحرك فى نفوسهم ، حتى لا يكون سنهم معاناة ومغالبة ، وصبر على احتمال المكاره ؟! أى فضل لهم يحمدون عليه ويستأهلون به هذا المقام العظيم الذى هم فيه ، إذا لم تتحرك فيهم دواعى الشهوات (١) ولم تنازعهم الأهواء ، ولم يبلوا البلاء أعظم البلاء فى دفعها . . إلخ » .

(١) لأن الكاتب يؤيد القول بأن هم يوسف ، كان هم فعل ، لا هم ترك .

يوسف يفر من الفتنة هارباً

﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ ...﴾

من ثَم وَلَّى هَارِباً يَنْجُو مِنَ الْبَطْشِ الْمِهينِ ٥٨
أَخْتُ الْفَجُورِ وَرَاءَهُ تَعْدُو كَعَدُوِّ الطَّالِبِينَ ٥٩

واستبقا الباب . . أى توجه الاثنان نحو الباب - يوسف وامرأة العزيز - يعدوان كأنهما يتسابقان فى حلبة سباق، كل منهما يعدو بكل ما أوتى من قوة، بيد أنهما ليسا متسابقين، بل كان يوسف يعدو هارباً من خطر محقق به فيه هلاكه ديناً وأخلاقاً وشرفاً، لقد فر هارباً يبغي النجاة من ذلك الخطر . . كان الخطر يتمثل فى المرأة الماجنة ، التى أعدت له كميناً: لولا عناية الله تداركته ، لوقع فيه، وعناية الله كانت هى فكرة الفرار .

يوسف الصديق يعدو مسرعاً، متجهاً نحو الباب، والمرأة الفاجرة تعدو بكل قوتها لتلحق به، كأنه خطف شيئاً ثميناً لديها، تريد أن تسترده منه، كانت تود اللحاق به لتبقيه معها فى مخدعها، لا تريد أن تتركه يخرج فلعله - لو أبقتة معها فى مخدعها - يستجيب لرغبتها المشبوبة إما بالتهديد والوعيد، وإما بالإغراء والملاينة ، بيد أنه آثر الفرار ، ذلك لأنها أسرفت فى الاعتداء عليه بالضرب، حتى أوجعته، ولما هم أن يرد العدوان بضربها، آنذاك رأى البرهان . . البرهان الذى تكاثرت وتعددت أقوال المفسرين فى نوعه وحقيقته . . أما نحن فقد رأينا فيه - الهم - رأياً جريئاً ، نزهنا به يوسف الصديق عن الهم السيئ للأسباب الآتية :

١ - أن يوسف الصديق ، نبي ابن نبي ، لذلك فلا يمكن أن يصدق الهم بالمعصية .

٢ - أن يوسف الصديق قال الله تعالى عنه : ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ والشيطان لا سلطان له على المخلصين ، لقد قال الشيطان : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) ﴾ [الحجر] .

٣ - ويحضرنى فى هذا المقام، قصة المرأة التى حاولت إغراء عبد الله بن عبد المطلب - والد النبي ﷺ - لقد عرضت نفسها عليه وقالت له : أعطيك المائة بعير التى نحررت فداءً لك . على أن توافقنى . . فأبى وعفّ ، فقالت له : أرى فيك « نسك

أبيك « أى أبوك رجل من أهل العبادة والأخلاق ، وأنت مثله .

هذا عبد الله بن عبد المطلب ، الذى لم يكن نبياً ولا ابن نبي ، يأبى أن يأتى هذا العمل ، واعتقد أن امتناعه هذا لم يكن تديناً ، بل كان ذلك خلقاً وسلوكاً ، لكونه من أسرة شريفة عريقة ، تحرص على الشرف والأخلاق ، ولا غرو فالأسر العريقة من قبائل العرب ، يعتبرون الزنا أسوأ طباع بنى الإنسان ، من ثم فإننى أتساءل ، أياكون عبد الله ابن عبد المطلب ، الذى لم يستمع يوماً إلى كلمة وعظ ، أو حلال أو حرام ، أو جنة أو نار ، أكثر حرصاً وعفة من يوسف الصديق ، سليل بيت النبوة كابراً عن كابر ؟! . . . أيعف عبد الله بن عبد المطلب عن الفاحشة ، ويأبأها دون تردد ، ويرفض العرض بمائة من الإبل !! ويوسف الصديق يهيم بالمعصية ، ويجلس من المرأة الفاجرة مجلس الرجل من امرأته ، ويحل التكة والهميان و . . . إلخ ما قالوا ، ولولا أنه رأى البرهان ، أو البراهين المزعومة ، التى لم يكن لها وجود إلا فى خيال القائلين بها ، لارتكب جريمة الزنا مع امرأة العزيز ، يالله !! إنهم - أى المفسرون - يتحدثون عن يوسف الصديق ، كأنهم يتحدثون عن رجل سوقى ، ونسوا أنه من سلالة عريقة شريفة ، وصفها العلماء بأنها السلسلة الذهبية . ولم لا . . . فهل يوجد فى تاريخ البشرية ، من لدن آدم إلى زمن يوسف الصديق ، من يسمي تلك السلالة العريقة ، شرفاً ونسباً ؟! الجواب ، قطعاً لا .

ذلك لأن يوسف ينحدر من جده الأعلى، إبراهيم أبى الأنبياء، وهو خليل الله ، ثم جده الأدنى إسحاق نبي الله، ثم والده يعقوب نبي الله، صلى الله عليهم وسلم أجمعين، والأغرب من هذا كله ، أنهم ينسبون هذه الأقوال الفجة، التى لا يمكن أن يقولها ذو عقل أو علم ، أى - البراهين - إلى ابن عباس ، ترجمان القرآن، وإلى عكرمة وسعيد بن جبير وقتادة وأضرابهم، وهؤلاء علماء السلف الذين نجلهم ونربأ بهم عن قول هذه الترهات، ونقول: ما هى إلا إسرائيليات، نقلها إلينا حاطبو الليل، الشغوفون بكل غريب .

عند الباب كانت المفاجأة

﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ ... ﴾

وقميصه قدته من دُبُرٍ ليهدى الحاكمين ٦٠
وهناك عند الباب أقبل سيّد البيتِ الفطين ٦١

لحقت الفاجرة بيوسف عند الباب ، فأمسكته بقوة وجذبتة من الخلف ، فتمزق قميصه فى يدها ، فكان هذا التمزق ، دليل براءة يوسف مما اتهمته به المرأة .. وبينما كان الاثنان : يوسف يريد أن يمكس برتاج الباب ليفتحه ، والمرأة تريد أن تحول بينه وبين الوصول إلى الباب ، ذلك لأنها كانت لا تزال تأمل فى إرغامه ، على تنفيذ رغبتها ، واحتوائه ليكون طوع إرادتها .

فى هذه الحالة ، فوجئ الاثنان : يوسف الصديق والمرأة ، بصاحب البيت ، قد فتح باب البيت .. كانت مفاجأة غير متوقعة .. يوسف يعلو محياه الرعب والفرع ، والعرق يتصبب من جبينه حياءً وخجلاً ، فقميصه ممزق ، وجزء كبير من جسده يبدو للعيان ، وأثر الصراع باد عليه ، لا يخفى على من رآه .

﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ ﴾ أى فى ذلك الوقت، حضر زوجها ، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿ وَأَلْفَيَا ... ﴾ فوجئ الاثنان بالرجل بعل المرأة ، تقول المرأة لبعلها : سيدى .. ولم يقل القرآن سيدهما ، لأن يوسف ﷺ ، ما كان مملوكاً لذلك الرجل فى الحقيقة . قال القرطبى : ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ ﴾ أى وجد العزيز عند الباب ، وعنى بالسيد : الزوج ، والقبط يسمون الزوج سيّداً .

زليخا تلقى التهمة على يوسف

﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٢٥)

قالت له فوراً : لتسمعنى سماع الفاهمين ٦٢
هذا يريدُ السوءَ منى فليكن في الصاغرين ٦٣
فَلْيُلْقَ فِي سِجْنٍ رَهيبٍ فى عدادِ المجرمين ٦٤
أو فليَذُقْ طَعْمَ العذابِ لأنه فى المعتدين ٦٥

كما كان أثر المعركة بادياً على يوسف، بحيث لا يخفى على من رآه، كانت امرأة العزيز في وضع امرأة أعدت نفسها لارتكاب الفاحشة، فالملابس شفافة، كاسية عارية، متهتكة يبدو عليها هيئة المرأة التي تحللت من الأخلاق، وخلعت برقع الحياء.. وفى الوقت نفسه تبدو عليها الهزيمة النفسية، ومن ثم فهي تريد أن تنتقم لنفسها من خصم أهانها.

لما انفتح باب الدار، ودخل زوج المرأة - عزيز مصر - ورأى يوسف ورأى المرأة فى وضع ليس طبيعياً، إن منظر الاثنين يوحى للناظر لأول وهلة، أن شيئاً ما قد حدث، وهذا الشيء له علاقة بالشرف.

بيد أن المرأة كانت ذات فطنة وذكاء، ودهاء المرأة الماجنة، فمن ثم لم تخنها فطنتها فى تلك اللحظة الحرجة، فبادرت زوجها قائلة بسرعة، قبل أن يسرح بأفكاره بعيداً، وقبل أن يفتح فاه بكلمة قالت: ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

فوراً ألقت التهمة على يوسف الصديق، لقد اتهمته أنه راودها عن نفسها بل حاول اغتصابها والاعتداء على عفتها.. ثم أردفت قائلة لتؤكد روايتها لزوجها: انظر! إلى فتاك هذا - وأشارت إلى يوسف - لقد حاول أن يغتصبني، فقاومته بكل قوتي، وقد تمزق قميصه وأنا أحاول الدفاع عن نفسى.. غير أنه لم ينل منى ما أراد.

ثم أردفت قائلة: لذلك أرى أن يلقي فى السجن، بين المجرمين ليكون عبرة لكل معتبر، جزاء له على جرأته وتطاوله على سيدته، ذات الشرف الرفيع، ثم قال: أو فليعذب عذاباً أليماً، لكى لا يفكر فى هذا الأمر مرة ثانية.

وهكذا ، لقد تسرعت المرأة فى إلقاء التهمة على يوسف الصديق ، وكان عليها أن تخترع قصة بعيدة عن المعنى ، لكى تبرر لزوجها هذا المنظر : منظر المصارعة والمقاومة الذى تبدو آثاره على الاثنين : يوسف والمرأة .

إلا أن دهاءها قد خانها فى هذا الموقف ، الذى لم تكن تتوقعه . . . لو أنها ذكرت قصة بعيدة عن هذا الموضوع ، لما فكر يوسف فى ذكر القصة الحقيقية .

قال الفخر الرازى فى هذا المقام: «إن حبها الشديد ليوسف، حملها على رعاية دقيقتين فى هذا الموضع ، وذلك لأنها بدأت بذكر السجن ، وأخرت ذكر العذاب ، لأن المحب لا يسعى فى إيلام المحبوب ، وأيضاً أنها لم تذكر أن يوسف يجب أن يعامل بأخذ هذين الأمرين ، بل ذكرت ذكراً كلياً ، صوناً للمحبيب عن الذكر بالسوء والألم ، وأيضاً قالت: ﴿إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ﴾ والمراد أن يسجن يوماً أو أقل على سبيل التخفيف ، أما الحبس الدائم فإنه لا يعبر عنه بهذه العبارة ، بل يقال : يجب أن يجعل من المسجونين » .

يوسف يدافع عن نفسه

﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي ﴾

لكن يوسف قد أجاب ، فقال قول الصادقين ٦٦
هي روادتنى تطلبُ الفحشاءَ فعَلُ الفاسقين ٦٧
ولقد أبيتُ فنالني ما قد يُرى للناظرين ٦٨
إني برىءٌ من مقالتيها براءة طاهرين ٦٩

كما قدمنا آنفاً ، فإن المرأة ألقت التهمة على يوسف الصديق ، وبقي على يوسف أن يدافع عن نفسه ، وإلا أخذ بجريمة هو منها براء ، وبالتالي فسوف يكون عقابه قاسياً مؤلماً . . ومن المعروف أن يوسف الصديق ، محفوف بعناية مولاه ، ومختار للنبوّة والرسالة ، وهو في الوقت نفسه سليل النبوة .

ولا غرو فمن أخص خصائص الأنبياء والرسل ، البيان ، إذن فيوسف الصديق لا ينقصه القدرة على التعبير ، ليدفع التهمة عن نفسه .

لما انتهت المرأة من حديثها إلى زوجها ، وقررت في حديثها أن يوسف حاول اغتصابها . . وقد كان يوسف في الوقت نفسه ، واقفاً في مكانه ، يسمع ما قالت المرأة عنه حرفاً حرفاً ، لم يثر ، لم يقاطعها أثناء حديثها ، بل تركها حتى انتهت .

فلما انتهت كان هو قد هيا نفسه للدفاع عن نفسه بكلام محدد ، هو الحق ولا شيء غير الحق . . ولم يكن في نيته أن يقول شيئاً سواه .

فتوجه يوسف بالحديث فوراً إلى العزيز ، فقال له : هي روادتنى عن نفسي ، أنا برىء من كل ما قالت المرأة عني ، فهي التي طلبت مني أن أكون خائناً ، ولما أبيت الاستجابة لرغبتها ، انهالت على ضرباً حتى أوجعتني .

لم يزد يوسف في دفاعه عن نفسه ، عن هذه الكلمات القليلة ، ولم يكشف للعزيز عن حقيقة الأمر ، وتفاصيل ما فعلته المرأة ، وعن تبذّلها وإغرائها له .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب في « القصص القرآني » وإزاء هذا الاتهام الصريح

من المرأة ليوسف ، مع أنها رأس هذه الفتنة - لم يجد يوسف بدأً من أن يدافع عن نفسه بالحق ، وقد دافعت هى عن نفسها بالباطل ، وفى كلمات قليلة وادعة النور ، قوية قوة الحق ، عرض يوسف صفحة دفاعه ومنطق براءته ، ﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي ﴾ هذا أقل ما يمكن أن يدفع به يوسف هذه الفرية التى تفتريها امرأة العزيز عليه . إنه لم يكشف للعزيز عن محاولاتها العديدة معه ، ولم يحدثه عن إغرائها له ، وعرض مفاتها عليه . . . إن أدبه العالى يحول بينه وبين أن يفضح امرأة سيده ، وحسبه أن يقف عند حدود هذا الحديث ومعالجته بحكمة ، دون الكشف عن جذور المأساة وأبعادها و . . إلخ ما قال .

قال الفخر الرازى فى هذا المقام : إن المرأة لما ذكرت هذا الكلام ، ولطخت عرض يوسف ﷺ ، احتاج يوسف إلى إزالة هذه التهمة فقال : ﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي ﴾ وأن يوسف ﷺ ما هتك سترها فى أول الأمر ، إلا أنه لما خاف على النفس ، وعلى العرض ، أظهر الأمر .

الشاهد يوجه العزيز على طريقة الاستدلال

﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ ﴾

سمعَ العزيزُ مقالةَ الاثنينِ سَمَعَ الفاهمين ٧٠
من ثم أصبحَ دون شكٍّ في مقامِ الخاترين ٧١
لكنَّ شاهدهم يقولُ ، وكان ذا قولٍ أمين ٧٢

لقد انتهى يوسف الصديق من الحديث إلى عزيز مصر ، بحيث دافع عن نفسه بصدق وإيجاز ، وقد كان العزيز يسمع ليوسف ، وهو مملوء دهشة واستغراباً ، بينما كان يوسف يقص على مسامعه صورة ما حدث ، كانت الخواطر تدور في مخيلته بصور متعددة ، وتساؤلات متعددة أيضاً .

بيد أنه قد بدا له من واقع الحال ، أن الجريمة لم تقع بعد ، وأنها لو كانت وقعت قبل ذلك ، لما حدث هذا الذي يراه ماثلاً أمامه .

ولا غرو فعزیز مصر ، رجل لا تنقصه حكمة الشيوخ و فراستهم ، وذلك بحكم موقعه كرئيس لوزراء مصر . . فمن ثم أخذ يدير بصره في أرجاء الغرفة فاحصاً . . تلك الغرفة التي شهدت صراعاً بين العفة والفجور . . بين الفضيلة والرذيلة . . بين الاستقامة والانحراف . . بين يوسف الصديق وامرأة العزيز . . أحدهما صادق والآخر كاذب .

إن العزيز يدقق النظر في كل شبر من الغرفة ، بحثاً عن أدنى دليل ، يستطيع أن يبنى عليه حكماً ، ثم يلقي نظره على المرأة بملابسها الشفافة ، التي تكاد تنطق بكذبها وافتراءها على يوسف ، ثم ينقل نظره على يوسف ، فيراه يكاد يتوارى حياءً وخجلاً مما هو فيه ، يحاول أن يستر ما بدا من جسده ، بعد أن تمزق قميصه .

ويبدو أن العزيز عرف الحقيقة من واقع الحال الماثل أمامه ، فالمرأة أمامه بملابس شفافة ، كاسية عارية ، ووقاحة وجراة ، أدلة على مجونها وجرمها .

بيد أن العزيز لم يجد الشجاعة لإعلان الحقيقة بنفسه ، فأراد أن يشرك معه رجلاً ، ذا عقل وحكمة ، في الرأي ، وهذا الرجل من أقارب المرأة ، لقوله تعالى ﴿ وَشَهِدَ

شَهِدَ مَنْ أَهْلَهَا ﴿ فتناقشا معاً في هذا الأمر ، فقال الرجل : إن الدليل يكمن في قميص يوسف الممزق ، فلتنظره ، ومن ثم فلن نجد صعوبة في الاهتداء للحقيقة .

فإن كان القميص ممزقاً من الأمام ، فهذا شيء طبيعي ، أنها هي التي مزقته ، دفاعاً عن شرفها وحينئذ تكون هي صادقة وهو كاذب ، وإن كان القميص ممزقاً من الخلف ، فهي التي مزقته أيضاً ، لأن الفتى قد فر هارباً أمامها ، فلحقته فأمسكته من قميصه من الخلف ، فتمزق القميص ، وفي هذه الحالة تكون هي الكاذبة وهو الصادق .

قال الفخر الرازي في : ﴿ وَشَهِدَ شَهِدَ مَنْ أَهْلَهَا ﴾ ليكون أولى بالقبول في حق المرأة ، لأن الظاهر من حال من يكون من أقربائها أو من أهلها ، ألا يقصدها بالسوء والإضرار ، فالمقصود بذكر ذلك الرجل من أهلها ، تقوية قول ذلك الرجل ، وهذه الترجيحات ، إنما يصار إليها عندما تكون الدلالة ظنية ، ولو كان هذا القول صادراً عن الصبي الذي في المهد ، لكان قوله حجة قاطعة ، ولا يتفاوت الحال بين أن يكون من أهلها ، وبين ألا يكون من أهلها ، وحينئذ لا يبقى لهذا القيد أثر .

الاختلاف فى شخصية الشاهد

﴿وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧)﴾

٧٣ إِنَّ الْقَمِيصَ هُوَ الدَّلِيلُ ، لِنَتَنَظُرُوهُ كَبَاحِثِينَ
٧٤ إِنْ كَانَ قُدَّ مِنَ الْأَمَامِ فَإِنَّهُ فِي الْكَاذِبِينَ
٧٥ أَوْ قُدَّ مِنْ خَلْفٍ فَيُؤَسِّفُ صَادِقٌ هَذَا يَقِينٌ

لا شك أن الدليل الأكيد ، فى هذه القضية ، هو قميص يوسف الممزق ، وقد نطق الشاهد الوحيد بهذا !

ولقد تكاثرت الآراء والأقوال عن هذا الشاهد ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ أول هذه الأقوال هو حديث شريف ، ينص على أن ذلك الشاهد ، كان طفلاً فى المهد .

عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : « تكلم أربعة وهم صغار : ابن ماشطة فرعون ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وعيسى بن مريم . » رواه أحمد وابن جرير والبيهقى .

إن صح هذا الحديث ، فهذه بغير شك معجزة . . وفى هذه الحالة يبطل الاجتهاد ، غير أن العلماء لم يكتفوا بهذا . . فأدلى كل منهم برأيه وتصوره عن ذلك الشاهد .

قال القرطبى : هو رجل حكيم ذو عقل ، كان الوزير يستشير به فى أموره ، وكان من جملة أهل المرأة ، كان مع زوجها فقال : قد سمعت الاستبداد والجلبة من وراء الباب ، وشق القميص ، فلا أدري أيكما كان قدام صاحبه ، فإن كان شق القميص من قدامه فأنت صادقة ، وإن كان من خلفه فهو صادق .

قال ابن كثير : وقد اختلفوا فى هذا الشاهد ، هل هو صغير أو كبير على قولين للعلماء من علماء السلف ، فقال عبد الرزاق : أخبرنا إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس فى ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ قال : ذو لحية ، وفى قول آخر عن ابن عباس ، كان من خاصة الملك ، وقول : كان ابن عمها ، وقول : إنه كان من أمر الله ، ولم يكن إنسيا . . وهذا أغرب ما قيل .

قال القاضي بيبضاوى : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ قيل : ابن عمها ، وقيل : ابن خالتها ، وكان صبياً فى المهد ، وعن النبى ﷺ ، تكلم أربعة صغار : ابن ماشطة فرعون ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج وعيسى بن مريم ﷺ ، وإنما ألقى الله الشهادة على لسان أهلها ، ليكون ألزم عليها .

الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى كتابه «القصص القرآنى» يختلف عن كل السابقين ، وينفرد برأى لم يقل به أحد . . فهو يقرر أن الشاهد فى قوله تعالى : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ هو العزيز نفسه ، ويدلل على هذا بقوله : ولا تنظر لما قيل من أن العزيز استدعى أهل الرأى والحكمة فى دولته وأخذ رأيهم فى هذا الحدث . . فإن ذلك عمل لا يعمله عاقل أبداً ، فيفضح نفسه وأهله على الملأ . . ولا تنظر كذلك إلى ما قيل من أن طفلاً فى المهد نطق ببراءة يوسف ، وشهد بأنها هى التى راودته ، فما كان الأمر محتاجاً إلى هذه المعجزة المتحدية ، وجسم الجريمة - كما يقولون - ماثلاً للعيان !!

العزیز یوجه التهمة لجنس النساء جميعا

﴿ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ (٢٨)

وَجَدُوهُ مِنْ خَلْفٍ تَمَزَّقَ إِثْرَ عَدْوَانِ مُبِينٍ ٧٦
عَرَفَ الْعَزِيزُ بِأَنْ يُوسُفَ لَمْ يَكُنْ فِي الْخَاطِئِينَ ٧٧

هذا عزيز مصر والشاهد معه ، يفحصان قميص يوسف الصديق - المفترى عليه - يفحصان قميصه ليتبينوا فيه الحقيقة الضائعة . . الضائعة بين امرأة ماجنة تدعى زوراً وبهتاناً على شاب برىء ، أنه حاول اغتصابها ، وبين يوسف الذى نفى عن نفسه التهمة ، وواقع الحال أيد نفيه ، وأكد براءته .

وباللقاء نظرة على القميص ، وجد أنه قد من دُبُر . . إذن فقد وضح الأمر ، وكُشفت الحقيقة تماماً أمام العزيز .

عرف العزيز أن يوسف صادق وعفّ أيضاً . وأن المرأة هى الكاذبة فى دعوتها . ولم يبق أمامه سوى أن يتخذ القرار المناسب ، فى هذا الموقف الخطير ، الذى قد يعرض بيت العزيز لعاصفة تزلزل أركانه ، إذا لم يكن ذاك القرار حكيماً .

انجبه العزيز إلى المرأة التى ثبت لديه خيانتها ، وقبل أن ينطق بأى كلمة ، صمت قليلاً ، إنه يفكر فى الأمر . ترى فى أى نوع من أنواع القرارات ، يفكر العزيز بشأن المرأة الخائنة؟! هل يفكر فى طلاقها ، لكونها فكرت فى خيانتها ، ولولا عفة يوسف ونزاهته ، لتلطخ شرف العزيز فى الوحل؟! أم تراه يفكر فى قتلها ، لتكون عبرة لكل امرأة تفكر فى خيانة زوجها؟! أم تراه سيأمر بعزلها - وهذا أيسر الأمور - فى جناح من أجنحة القصر ، تأكل وتشرب فقط ، ولا صلة لها بسيد البيت . . تظل معذبة بالهجر والحرمان مدى الحياة؟!

تمخض الجبل فولد فأراً!!! أخيراً نطق العزيز بحكمة لقمان!!! فقال للخائنة : ﴿ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ يا لله!! يبدو أن العزيز قد سكن غضبه أثناء فترة صمته ، فلم يواجه المرأة بجريمتها ، بل وجه التهمة لبنات جنسها كلهن ، وكأنه أشفق على المرأة من أن تغضب!!!

قال الأستاذ أحمد بهجت فى كتابه «أنبياء الله»: نسب - العزيز - ما فعلته المرأة إلى كيد النساء عموماً ، وصرح بأن كيد النساء عموماً عظيم ، وهكذا سيق الأمر كما لو كان ثناء يساق .

ولا نحسب أنه يسوء المرأة أن يقال لها : ﴿ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ ﴾ ، فهو دلالة فى حسها على أنها أنثى كاملة ، مستوفية لمقدرة الأنثى الكاملة على الكيد .

العزیز یأمر یوسف بکتمان الأمر

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكَ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ (٢٩)

من ثُمَّ قَالَ لَهُ : فَكُفَّ عَنْ الْحَدِيثِ لآخرين ٧٨
اكتتم لهذا الأمر ، لا تذكره للمتساءلين ٧٩
وإلى زليخا قال قولاً في هدوء اللائمين ٨٠
فاستغفري مما جنيت فذاك فعلُ الماجنين ٨١

ها نحن أولاء لا نزال مع العزیز ، وقد أصدر قراره الذي جاء مخالفاً لكل ما يتصوره إنسان !!! فقال ليوسف : ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ إنه يأمر يوسف بکتمان هذا .. !! لا تذكر هذا الأمر لأحد يا يوسف ، وانس ما حدث تماماً .

ثم عاد بالحديث إلى المرأة ، وكأنه يستدرك حديثه السابق إليها ، أنه كان ليّناً ، إذن فليوجه اللوم لها، لكي لا يتهمه الآخرون بالضعف أمام امرأته . فقال لها: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكَ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ .

ياالله!! أهذا يكون حديث رجل لامرأته، بعد أن اكتشف خيانتها له؟! هذا بغير شك يدل على أن العزیز كان بليد الطبع ، ليس فيه حرارة الرجال ، الذين يثورون عندما تنتهك حرمتهم ، أو يعتدى على شرفهم .. ولنستمع إلى ما قاله علماء التفسير عنه .
« قال ابن كثير: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ﴾ يقول لامرأته وقد كان ليّناً العريكة سهلاً ، أو أنه عذرها لأنها رأت ما لا صبر لها عنه » .

« قال الأستاذ رشيد رضا في تفسيره «المنار»: وقد استدل الكرخي بقول هذا الوزير لزوجه ، على أنه كان قليل الغيرة .. ثم قال : وزعم أبو حيان في « البحر المحيط » أن هذا مقتضى طبيعة تربة مصر وبيئتها ، وأنها لرخاوتها لا ينشأ فيها الأسد، ولو دخل فيها لا يبقى، وهذا كلام غير مبني على علم صحيح، فأما سبب عدم نشوء الأسد في هذا القطر ، فهو خلوة من الغابات والأدغال التي يعيش فيها ، وأما كونه إذا أدخل لا يبقى ، فإن صح بالتجربة في الماضي ، فسببه عدم وجود المأوى له .. وها نحن أولاء

نرى الأسود والفهود والنمور ، تعيش وتتناسل فى حديقة الحيوان بالجيزة . . . » .

« قال القرطبي : وقيل : إن القائل ليوسف : أعرض ، ولها استغفرى ، زوجها الملك ، وفيه قولان : أحدهما - أنه لم يكن غيوراً ، فلذلك كان ساكناً ، وعدم الغيرة فى كثير من أهل مصر موجودة . الثانى - أن الله تعالى سلبه الغيرة ، وكان فيه لطف بيوسف ، حتى كُفَى بادرته وعفا عنها » .

قال الفخر الرازى : ﴿إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ نسبة لها إلى أنها كانت كثيرة الخطأ فيما تقدم ، وهذا أحد ما يدل على أن الزوج عرف فى أول الأمر ، أن الذنب للمرأة لا ليوسف ، لأنه كان يعرف عنها إقدامها على ما لا ينبغى .

قال أبو بكر الأصم : إن ذلك الزوج كان قليل الغيرة ، فاكتمى منها بالاستغفار .

وقال صاحب الكشف : وإنما قال ﴿مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ تعليلاً للذكور على الإناث ، ويحتمل أن يقال : المراد أنك من نسل الخاطئين ، فمن ذلك النسل ، سرى هذا العرق الخبيث فيك . والله أعلم .